



53

# العقل العربي

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

## الفصل الثالث عشر

### الوحدة والصراع

#### 2. القتال... بالسنان واللسان

على الرغم من كل ما سبق، لم تستطع الوحدة الدينية الإسلامية ولا الوحدة العربية على مستوى الثقافة والشعب أن تتغلب على الشقاق والميل إلى الصراع الذي يتأتى من تراث عربي يعود إلى فترة ما قبل الإسلام؛ ومن أهم خصائص هذا التراث القانون الذي جاء من منطقة الشرق الأدنى: وهو قانون الثأر. وبموجب هذا القانون لا تقع مسؤولية أخذ الثأر على من وقع عليه الظلم أو قرابته الأذنين فحسب، وإنما يعتبر ذلك واجبا يعاقب من لا يلتزم به بعقوبة تلطيخ سمعتهم بالعار. ونتيجة لهذا القانون الذي تلخصه عبارة «العين بالعين» أو «الدم يطلب الدم»، كانت العداوات الثأرية بين الأسر والعشائر تشكل جزءا طبيعيا من الحياة اليومية للكثير من الأجيال قبل مجيء الإسلام.

ويجب الإشارة هنا إلى أن العداوات الثأرية ليست ولم تكن في يوم من الأيام خاصة بالعرب وحدهم، وإنما وجدت في العادات والتقاليد المتوسطة أيضا. لكن العرب وحدهم هم الذين استمروا باعتبارها قيمة ذات أهمية ومنزلة عليا.

تشكل العداوات الثأرية جزءا جوهريا ونتيجة لا مناص منها للتلاحم الشديد الذي تتميز بها الجماعة في العرف العربي. ففي مجتمع يشهد مثل هذا التشديد الهائل على العشيرة، وتكون فيه المصالح الشخصية أمرا ثانويا بالنسبة لمصالح الأسرة والعشيرة، وتحتل فيه السمعة الحسنة المنزلة الأولى في قائمة الأولويات، لا يمكن الحيلولة دون أن تؤدي كل عملية قتل، سواء كانت عمدا أم خطأ، إلى طلب الثأر وإشعال سلسلة من عمليات الانتقام التي تطال في زمن قصير عددا متزايدا من الرجال والعشائر.

## الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

إضافة إلى ذلك، يمكن أن تعتبر العداوات الثأرية مجرد مظهر صريح لميل عربي عام إلى القتال والصراع. وكما أن أخذ الثأر اعتُبر من القيم وأمرًا يعيد للمرء شرفه السليب. فإن القتال عموماً يأخذ هذه المنزلة. وصرحت هذه الروح القتالية بوجودها بأشكال عدة خلال التاريخ العربي الإسلامي؛ حيث ألهمت حماسة جيوش كبيرة وقادتها في معارك انتصرت بها على الكفار في ثلاث قارات. وفي أحيان أخرى حرّضت العرب على قتال بعضهم البعض. ثم جاء عصر الانحطاط الذي يشجبه الكثير من المؤرخين العرب. وفيه عبرت الروح القتالية عن نفسها بالشتم والإهانات والتهديد والصراخ، بدلا عن القتال الجسدي.

كان القتال بين العرب قبل الإسلام معلما بارزا من معالم الحياة العامة. لذلك وجد النبي محمد من الضروري إعلان فترة «هدنة مقدسة» خلال أربعة أشهر من كل عام. وفيها يحرم القتال بكافة أنواعه وتخصص للعبادة والتجارة. ومن العوامل المهمة التي ساهمت في نجاح النبي محمد في حشد سكان شبه الجزيرة العربية حول دعوته للدين الجديد كان الحقيقة المتمثلة في أن العداوات الثأرية أضعفت القبائل العربية وجعلت من المستحيل عليها أن تتحد ضده. ويروي المؤرخون العرب أن هذه العداوات كانت كثيرة إلى حد جعل كل قبيلة تطلب ثأرا من قبيلة واحدة أو أكثر. وبالرغم من أن عدد القتلى في هذه العداوات ربما لم يصل إلى أرقام ضخمة. فإن الكراهية ما بين القبائل وصلت إلى حد جعلها عاجزة عن التحالف لتكوين حركة مقاومة حقيقية ضد الجيش الإسلامي بقيادة النبي محمد.

وكان من سمات العداوات القبلية والعائلية قبل الإسلام أنها ضجيج أكثر منها قتال. ويمكن ملاحظة ذلك لمن يدرس تاريخ (أيام العرب). إذ يتبين أن عددا من الأحداث المفتخر بها لم تكن معارك حقيقية على الإطلاق. وإنما مناوشات غير مهمة لا يشارك في الكثير منها إلا بضعة عائلات أو أفراد؛ أما المعارك التي تدعى بـ(الكبرى) فلم تكن غير ترام بالحجارة وتضارب بالعصي. ويحمل العديد من هذه (الأيام) سمة نمطية: وهي أن يلتقي عدة أشخاص للتضارب. وعادة يكون ذلك إثر نزاع أو إهانة. ثم ينمو الشجار ليصبح عدا بين القبليتين بأكملهما. لتلتقي القبيلتان في معركة بعد ذلك. ثم لا يلبث أن يسقط قتلى

## الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

في الجانبين، فتتدخل عائلة محايدة ويعود السلام على أن تدفع القبيلة التي فقدت العدد الأقل من القتلى ديات فارق عدد القتلى للقبيلة الأخرى. إن هذا النمط يبدو أنه يشير إلى أن الأقوال كانت هي السلاح الأساسي في القتال القبلي حتى خلال العصور القديمة، ولم يكن القتال الحقيقي يندلع إلا إذا خرجت الأمور عن نطاق السيطرة، وعندها يتم إيقاف النزاع بأسرع ما يمكن.

لا يزال ذلك النمط حيا إلى يومنا هذا. ففي الجزائر، نجد أن قبائل البربر التي تأثرت بشكل جوهري بالثقافة العربية الدخيلة عليها تسعى الأطراف السياسية والقتالية فيها إلى تسوية العداوات «على شكل لعبة ذات نظام محكم، ومنافسة منظمة». وتكون المناوشات القبلية تأخذ أحيانا شكل طقس ما: حيث يتبادل الطرفان الإهانات، ثم الضربات؛ وخلال ذلك تقوم النساء بتشجيع الرجال عن طريق الصياح أو الغناء الذي يمجّد شرف العائلة وحيويتها. ولم يكن الغرض من هذه المناوشات قتل أو تحطيم الخصم، ولكن إظهار من يحتل موقع السيطرة باستخدام أداء رمزي عموما... ولم تكن الوفيات تحدث في مثل هذه المناوشات إلا عن طريق حادث مؤسف، أو عندما يهدد الطرف الأقوى بالهجوم على مساكن الطرف المحاصر، وهو ما يعتبر تهديدا للشرف في معقله، مما يؤدي إلى الاستعانة بالأسلحة النارية، وكان هذا لوحده كفيلا بإنهاء القتال؛ إذ يتدخل عندها الوسطاء (يطلق على واحد منهم: المربوط)، ويطلبون من المعتدين أن ينسحبوا، ويتعهدوا لهم بأن لا يتم التحرش بهم أثناء الانسحاب. وبهذه الطريقة وغيرها يتصرف (المربوطون) كوسطاء، ويعلنون نهاية القتال دون إلحاق العار بأي من الطرفين. وبهذه الطريقة، يكون الوسطاء قد تدخلوا ووضعوا نهاية للقتال في اللحظة التي يتخذ فيها طابعا دمويا. ومع ذلك، يمكن لحالة الحرب بين القبائل أن تستمر لعدة سنين، لذلك يمكن القول أن العداوات كانت حالة مستمرة تمر بتوقفات مؤقتة تفرضها هدنات متكررة يتم التوافق عليها وضماتها وفق مبدأ الشرف.

## الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

مهما كان رأينا عن الرجولة التي يبديها الأطراف في هذا النوع من الصراع. فإن أمرا واحدا يمكن قوله دون تحفظات؛ وهو أن هذه الطريقة في الصراع أكثر إنسانية من أنماط القتل المبالغ فيه التي تطورت تدريجيا في الغرب وشهدناها في صراعاته الأخيرة. وسواء أكانت تقاتل العرب مسلحا بالبنادق أم بالعصي والحجارة أم بالإهانات اللفظية، فإنهم يعتبرون ما به من عدوانية تعبيراً مشرفاً عن الرجولة.

وبالنظر إلى أن العرب كانوا أمة تعنى بالشعر، كانت الشجاعة في الوقوف في وجه الأعداء موضوعاً مفضلاً في شعر المدح؛ حيث نظمت الكثير من القصائد القديمة لتمجيد شجاعة قبيلة الشاعر. وحتوت بعض القصائد تغنياً للشاعر بقدراته هو في القتال، وفي الواقع. هنالك من أشهر الشعراء العرب الأقدمين من لم تتجاوز قصائده التغني بشخصيته وإنجازاته إلا في ما ندر. وبالإضافة إلى الشجاعة في المعارك، احتوت قيم المروءة العربية القديمة على صفات أخرى كالصبر عند الشدائد، والإصرار على أخذ الثأر، وحماية الضعيف، والوقوف في وجه القوي؛ وهنالك صفات أخرى تكميلية مثل: الولاء، والإخلاص، والكرم. إن كل تلك الصفات تصب جميعاً في مجرى شرف المرء الذي ينبغي أن يتم الدفاع عنه بغض النظر عن التضحيات المطلوبة. وفي مقابل قيمة الشرف تتضاءل قيمة حياة المرء، وهي ظاهرة نلمحها في الكثير من القصص، الجديدة والقديمة، التي تروي كيف أن شخصاً ما ينفذ التماساً ما يتعلق بالشرف، أو يحمي أو يستعيد شرفه، بالرغم من أن ذلك يكلفه حياة ولده أو أحد أتباعه. ولقد طرح أحد أصدقائي العرب ممن يقرأون تراث ثقافات عديدة ملاحظة نقدية تشير إلى أن كلا من العرب واليابانيين جاهزون للقتل في سبيل استرجاع الشرف الضائع؛ ولكن الفرق أن الياباني يقتل نفسه، أما العربي فيقتل الآخرين.

كانت الأسواق الأدبية وغيرها من المناسبات في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام تشهد انخراط ممثلين عن القبائل، أو شعراء منها، في (المفاخرات)، وهي منافسات لتبيان أمجاد كل قبيلة، وفيها تتم الإشادة بكل عناصر الشرف لديها والإساءة القاسية إلى المناوئين. وتذكرنا هذه المنافسات باحتفالات البوتلاتش (Potlach) لدى الهنود الحمر في

## الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

الساحل الشمالي الغربي لأمريكا الشمالية، والتي وصلتنا عن طريق عالمة الانثروبولوجيا الأمريكية روث بينيديكت<sup>1</sup>؛ حيث كانت هذه الاحتفالات تعقد بين القبائل والعشائر. وفي بعض الأحيان بين العوائل والأفراد. وهي عبارة عن مبارزات أدبية أسهمت بقدر كبير في تطور الشعر والخطابة. ولكنها من جانب آخر أدت إلى تشجيع الحماسة الجامحة إلى حد جعلها كثيرا ما تنتهي بقتال عنيف أو حتى سفك للدماء. وهو ما يقود بدوره إلى نشوب الحرب. ولم تتوقف هذه المنافسات بعد الإسلام. وكانت تعقد أحيانا بحضور الخلفاء الذين لم يروا مانعا من المشاركة فيها.

إن العرف العربي القديم الذي يعتبر المبالغة في الاعتداد بالنفس أمرا مقبولا. وحتى أنه ينظر إليه كطريقة محمودة لتحسين صورة شرف المرء. يمكن اعتباره عرفا مؤسساً لميزة مشابهة في سلوك العرب في الزمن الحالي. فالميل إلى الاعتداد المبالغ به بالنفس يمكن ملاحظته بشكل خاص في كتابات وخطب القادة العرب الذين يكثرون من الإشارة دائماً. وفي أي سياق. إلى جوانب مختلفة من عظمة العرب. إن الخطيب العربي يخاطب جمهوره بأنه «الشعب النبيل الفخور» ويحاول أن يثير فيهم رد فعل إيجابي أو حتى حماسي من خلال تمجيده باعتباره جزءاً من الأمة العربية الكبرى باستخدام مصطلحات مكررة مبالغ بها. والإشارة ما تتصف به من بطولة ورجولة وإخلاص... الخ. إن هذا الميل إلى التفاخر قوي إلى درجة تجعله يظهر حتى في البيانات الرسمية التي تستخدم لغة الأرقام والحقائق في باقي أنحاء العالم. إذ قد يسمع المرء إشارات في برامج الإذاعة عبارات مثل «جنودنا الأبطال»، و«طيارينا الأبطال» وما إلى ذلك.

ونجد مظهراً من مظاهر هذا الميل في الكتابات السياسية الايديولوجية. ومثال على ذلك ما كتبه عبدالرحمان البزاز في كتابه الضخم حول القومية العربية (هذه قوميتنا)؛ حيث يورد عدة صفات يعتبرها جميعاً مستمدة بشكل مباشر من القومية العربية ولا تنفصل عنها. وهي: الديمقراطية، والاشتراكية العربية، والتقدمية، والثورية، والواقعية.

(1) روث بينيديكت (Ruth Benedict): أنماط الثقافة: ص 141 وما بعدها.

## الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

والحركية. كما نجد خطابا طويلا من هذا النوع في كتابات ناصر الدين النشاشيبي عند إجابته على سؤال: «لمذا نحن عرب؟» فيقول:

إننا عرب لأننا نؤمن بالله لا المادة، ونقدس الأنبياء لا السلاح. ولأن قوتنا هي أساس وجودنا... إننا عرب لأننا ذوو رسالة إنسانية تدعو إلى خير الجميع. إلى العدالة الاجتماعية، وللتعاون المشترك بين الطبقات. إننا عرب لأننا نحب استقلال بلادنا واستقلال الأمم جميعا جنبا إلى جنب معنا. ولهذا السبب لا نهاجم أحدا ولا نسلب منه حقه في الحياة... إننا عرب لأننا لا نتمسك برؤى الفلسفة الاجتماعية المستمدة من خارج أفقنا وحدودنا وأرضنا العظيمة. لأن هذه الرؤى تحطم وجودنا وتضر بكل ما هو مقدس عندنا...<sup>1</sup>

وفي مقابل مديح الذات نجد هجوما لفظيا على الأعداء. وقد كانت الإساءة اللفظية والتفريغ الشفوي في الماضي. على شكل قصائد الهجاء، تعتبر جزءا مهما من الصراع مع العدو. ويمكن أن نجد المثال الأقدم على ذلك، بحسب المستشرق غولدزيهر، على شكل أبيات من الشعر في ما ورد في الكتاب المقدس عن طلب بالاق ملك موآب من النبي-الشاعر بلعام أن يلعن بني إسرائيل:

فتعال الآن والآن لي هذا الشعب لأنه أعظم مني، لعلي أتمكن من دحره وطرده من الأرض لأنني عرفت أن من تباركه يكون مباركا ومن تلعنه يكون ملعونا.<sup>2</sup>

ويمكن أن نضيف هنا مثلا آخر:

فوقف جليات ينادي... «إنني أعير وأتحدى اليوم جيش إسرائيل، ليخرج من بينكم رجل يبارزني». فقال الفلسطيني [جليات]: «أعلي كلب حتى تأتي لمحاربتني بعضي؟!». وشتم الفلسطيني آلهة داود، ثم قال لداود: «تعال لأجعل لحمك طعاما

(1) ناصر الدين النشاشيبي: الوحدة وقضية فلسطين: ص 28-29.

(2) العهد القديم: كتاب العدد: (22: 6).

## الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

لطيور السماء ووحوش البرية». فأجابه داود: «أنت تبارزني بسيف ورمح وترس. أما أنا فأتيك باسم رب الجنود إله جيش إسرائيل الذي تحديته. اليوم يوقعك الرب في يدي فأقتلك وأقطع رأسك وأعطي جثث جيش الفلسطينيين هذا اليوم لتكون طعاما لطيور السماء وحيوانات الأرض فتعلم المسكونة كلها أن هناك إلهها في إسرائيل<sup>1</sup>.

وتعود أصول هذه التحريضات التي تسبق المعارك إلى الاعتقاد البدائي بقوة الكلمة. أي فعالية اللفظ. وبالأخص عندما تكون هذه الكلمة إهانة تتسبب بأذى كبير عندما يتم تسديدها بدقة. وبالرغم من أن الهجاء استغني عنه لدى الشعوب العبرانية القديمة قبل نهاية العصور التوراتية بأمد طويل، فقد استمر العرب بالاهتمام به قبل الإسلام وبعده. وبقي الاعتقاد مستمرا بأن الهجاء ما أن يطلق ضد جهة ما فإنه. وإن كان لا يحمل ذرة من الحقيقة. يمتلك تأثيرا قويا وعواقب طويلة الأمد. ووفق ذلك: كلما كانت الإهانة أكثر عنفا. كلما كبر حجم العار الذي يلحق بالطرف المهجى دون أي اعتبار لمدى الحقيقة المتوافرة في الكلمات التي رشق بها. كما ينبغي أن تكون الإهانات مغلفة بغلاف شعري. أو سجعي على الأقل. وبهذا يجب أن تصدر عن شاعر. إن الإهانات الشائعة الموجهة إلى فرد ما. سواء أكانت ذات أساس واقعي أو لا. تحتوي في العادة على اتهامات بالجشع. والامتناع عن إكرام الضيف. وقلة الذكاء. والجبن. والتردد. وعدم الوفاء بالعهد. وغياب الحلم. والنسب المجهول. واختلاط النسب. وما إلى ذلك. كما تتهم الجماعة. كالقبيلة مثلا. بأنها قليلة العدد. ضعيفة. لا يعرف لها باع في الشعر والخطابة. مهزومة. هزيلة الأسلاف. مزيفة النسب. نساؤها غير منضبطات. وغير ذلك من العادات المرفوضة كأكل لحم الكلاب أو البشر: فكلما كانت الإهانة مقرزة أكثر. كلما ازدادت فعالية الهجاء.

اتصفت ردود الفعل على الهجاء بالعنف: فالويل كان نصيب الشاعر الذي تمسك به قبيلة نالها لسانه في السابق. فقد يقتل أو يقطع لسانه. وليس من الغريب أن يتسبب الهجاء

(1) العهد القديم: كتاب صموئيل الأول: (17: 10-46).

## الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

بين جهتين غير متحاربتين بصراع مسلح ليس له من سبب غير الإهانات اللفظية. ثم جاء زمن. بدءاً من القرن التاسع أو العاشر وما بعده. وجّه فيه الشعراء كلماتهم المسمومة ضد من يرعاهم إن وجدوه بخيلاً. وحينها تنوع الاتهامات من الجشع واللؤم وانحطاط النسب إلى الشذوذ الجنسي وغيره من الانحرافات. وكما هو حال خصائص ثقافية أخرى للعالم العربي استمر الهجاء حياً إلى يومنا هذا؛ لكن نبرته باتت أقل حدة. ولم يعد من المستساغ توجيه الإهانات المقرزة. أضف إلى ذلك أن أهداف الهجاء تغيرت. فلم يعد يوجه إلى القبائل المعادية وإنما إلى الأحزاب السياسية. وحكومات الدول العربية. والحكومات الأجنبية. والاستعمار والامبريالية. ومهما كان شكل الهجاء وتوجهاته. فإنه يبقى مثلاً آخر على بقاء البنى الأثرية في الثقافة العربية والأثر الراسخ للأنماط القديمة للفكر في العقل العربي الحديث.

وبينما يبدو العرب أكثر ميلاً إلى الجدل والخصام من القتال. فإن الحالة المعتادة للعلاقات بين التكتلات الاجتماعية العربية وضمنها كانت مطبوعة بطابع الصراع؛ ونتيجة لذلك يكاد يكون هنالك توتر دائم ناتج عن الشعور بالتهديد وما يستدعي ذلك من الحاجة إلى التهديد. ولضمان البقاء في وضع اجتماعي كهذا. ينبغي إنزال الخصائص العدوانية للفرد بمنزلة القيم. وعلى الثقافة أن تطور تقنيات لرفع كافة الميول العدوانية في النفس إلى أعلى قيمة ممكنة. وهنا تكون المفاخرة. والهجاء. وواجب الحفاظ على الشرف واستعادته إن فقد. والمرورة والرجولة... كلها خصائص يفرضها النظام الاجتماعي لإتاحة البقاء والازدهار في بيئة اجتماعية كهذه. وفي هذه البيئة هنالك هدف مثالي لا تستطيع هذه الصفات الثقافية إنجازه: وهو هدف الوحدة الذي بقي طوال التاريخ العربي عصياً على الإنجاز ولا يزال إلى اليوم بعيداً عن التحقق.

إن الانطباع العام الذي نخرج به من الاعتبارات السابقة جميعها يحتاج إلى إضافة؛ وهي أن التأكيد على استعمال الهجاء والمفاخرة والأسلحة غير القاتلة في النزاع كان طابع النزاع العربي - العربي بشكل أساسي. وكان القتال بين القبائل غالباً ما يتخذ نمط الغارة

## الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

التي يُتفادى فيها استخدام السلاح ما أمكن. وبالرغم من ذلك، عندما كان القتال يندلع مع غير العرب. أي مع غير المسلمين في أيام ازدهار الوجود العربي، كانت الحمية التي غرسها الإسلام قد غيرت مفهوم المعركة بشكل جذري. فأصبح (أن تكون قاتلاً أو مقتولاً). وأن الشرط الوحيد لحفظ الأرواح هو خضوع الكافر واعتناقه الإسلام. لقد كانت الروح البطولية في هذه الحروب مدفوعة بالوعد الذي يقطع لكل من يشارك في الجهاد. والإيمان بأن قدر كل إنسان «مكتوب» من قبل.